عنوان المقال: جدل تأويل إيديولوجية الهوية

الاسم واللقب: عقيبي لزهر

رقم الهاتف الجوال : 0779065393

العنوان الالكتروني: l.aguibi@univ-biskra.dz

الدرجة العلمية: أستاذ محاضر – ب –

جامعة محمد خيضر – بسكرة–

تقديم:

التساؤل عن الهوية ليس تساؤلا ابستمولوجيا فقط، نريد أن نتعرف فيه على شيء ما، بل هو تساؤل أنطولوجي أيضا، يتعلق بالكائن الذي يبحث عن تلك الهوية، وبوجوده أمام ذاته، حيث السؤال عن هويته متقدم على السؤال عن هوية الأشياء، وبالتالي فإن تساؤل الكائن على أي هوية أخرى يجعله يلقي بهويته عليها، إذ هو لا يعرف الآخرين إلا من خلال انتمائه وهويته ونظرته الخاصة.

ومن هنا تأتي الإيديولوجيا كمكون أساسي لعلاقة الانتماء، حيث يجد الإنسان نفسه منخرطا في مجتمع لم يختره، ولا اختار إيديولوجيته ولا ثقافته، وبين بحثه عن هويته الفردية وانخراطه في ثقافة المجتمع وايديولوجيته، فإنه يعاني صراعا في الاختيار وقلقا مما تفرضه الايديولوجيا على نظرته للهوية من أحكام مسبقة وحوافز ومقاصد. وبما أن النظرة الأيديولوجية للهوية الجماعية تختلف باختلاف الأفراد والفئات والطبقات الاجتماعية وباختلاف العصور، فإن التساؤل عن البنية الجدلية لإيديولوجيا الهوية يصبح تساؤلا ملحا، فكيف يمكننا تأويل هذه الجدلية وتفسيرها؟ وما دلالتها في حياة المجتمع العملية ؟

هذا يدعونا إلى تحليل وتفسير البنية الجدلية لإيديولوجيا الهوية، التي تظهر لنا في ثنائيات على غرار الهوية الأصيلة والهوية الوافدة، الهوية المنغلقة والهوية المفتوحة، الهوية الدينية والهوية العلمانية، الهوية الوطنية والهوية العالمية (العولمة)... وهي بنية تدل في الحقيقة، عن صراع إيديولوجي بين التأويلات المختلفة، من الصعب التحكيم بينها، باعتبارها تعبر عن انتماءات ومصالح فئوية وعلاقات هيمنة وسيطرة محلية وعالمية، مع ذلك فإن هذه التأويلات تميل إلى التوافق في الحياة العملية للمجتمع الواحد.

إن هذا الجدل الايديولوجي حول الهوية يلتقي في الحياة العملية بالسلطة السياسية وبالقانون وبالشروط الاجتماعية والدينية والثقافية لحياة المجتمع، ويكتسي تحكميا عمليا، يختلف من مجتمع الى آخر، ودرجة التحكم فيه متوقفة على مدى فعالية تلك الشروط.

وتبعا لكل ذلك، فإن حل هذه الإشكالية يتطلب الخطوات الأساسية التالية:

- تجاوز النظرة الشائعة للإيديولوجيا كمفهوم باثولوجي أو مرضي فقط، والتأكيد على جانبها الايجابي المغيب في تفكيرنا في مسألة الهوية.
- الهوية باعتبارها مفهوما أنطولوجيا، حيث من يسأل عن اشكالية الهوية هو هذا الكائن الذي يهمه فهم ذاته وهويته قبل فهم الأشياء والموضوعات الأخرى، الأمر الذي يدل على ارتباط إشكالية الهوية بعلاقة الانتماء الثقافي والتاريخي والذاتي لمن يبحث فيها.
- تحليل البنية الجدلية لايديولوجيا الهوية.
- البنية الإيديولوجية والحكمة العملية.

1- الايديولوجيا بين النظرة المرضية والنظرة الصحية:

إن ما يشاع لدينا في الدراسات الفلسفية والعلوم الاجتماعية خاصة، هو المعنى المرضي للإيديولوجيا، وهذا الوصف يتأتى من سيطرة فكر فلسفي عربي يكتسب مصداقيته من عصر الأنوار، حيث القوى العلمية والعقلانية في مواجهة ايديولوجيا الفكر اللاهوتي لرجال الكنيسة وايديولوجيا الاقطاع. كما يتأتى ذلك المعنى من الترويج المبكر للفلسفة الماركسية في الفكر العربي، وهي الفلسفة التي نقلت مفهوم الايدولوجيا من المجال المعرفي الذي دشنه دوستوت دو تراسي Dustut de tracy إلى المجال الاجتماعي والسياسي، حيث صراع الطبقات والفئات الاجتماعية.

لقد انعكس هذا الموقف على الفكر العربي، حيث يشهد كتاب المفكر المغربي عبد الله العروي بعنوان" الإيديولوجيا العربية المعاصرة " على ذلك التأثير، فهو ينتهي في تعريفه للايديولوجيا الى القول: " أسمي أيديولوجيا " أدلوجة " أشياء ثلاثة: أولا ما ينعكس في الذهن من أحوال الواقع انعكاسا محرفا بتأثير لا واع من المفاهيم المستعملة. ثانيا نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب وأحيانا يمتنع تحليله. ثالثا نظرية مستعارة لم تتجسد بعد كليا في المجتمع الذي استعارها لكنها تتغلغل فيه كل يوم أكثر فأكثر." [i]

من خلال هذه التعريفات التي يقدمها العروي تبدو الايديولوجيا كتشويه فكري للواقع، كتحايل على الواقع، كنظرية لم تتحقق بعد، فالواقع شيء والايديولوجيا شيء آخر.

أما من الناحية العلمية والبيداغوجية، فإن الايديولوجيا عادة ما توضع في مقابل العلم، وهكذا يتم تعليمنا بأن الايديولوجيا أفكار سلبية وأحكام ذاتية تتعارض مع الحاجة إلى الموضوعية وبناء العلوم.

لكن قراءة الفلسفة المعاصرة للايديولوجيا ترينا أن هذا الوجه السلبي أو المرضي للايديولوجيا ليس هو الوجه الوحيد، فقد اعتبر بول ريكور، Paul Ricœur، الايديولوجيا مفهوما رمزيا، إنها إحدى أشكال الخيال الاجتماعي مثل اليوتوبيا والقصص والأساطير التي تدخل ضمن ثقافة المجتمع. والنظر إلى الايديولوجيا كنظام رمزي ضمن ثقافة معينة، يعني أنها " إطار مفهومي لا هو سببي ولا هو بنيوي، ولا حتى حركي لكنه ابتداء سيميائي."[ii] ومع ذلك لا ينكر ريكور وظيفة التشويه التي تقوم بها الايديولوجيا، حيث تعبر عن الصراع الفئوي والطبقي والتوتر الاجتماعي، لكنه يضيف لها وظيفتين أخريين وهما: أنها تعبر عن علاقة الانتماء، من خلال قدرتها على إدماج وتمثيل هوية أمة أو جماعة، ومن جهة أخرى، تعمل على تبرير مشروعية سلطة معينة وتحافظ عليها، وبالجملة فإن الايديولوجيا إطار معرفي ورمزي يدل على مستوى وعي الفاعلين بواقعهم وطرق تعاملهم معه، ويمكن من خلالها تفسير أفعالهم المختلفة.

أما كليفور غيرتز Clifford Geertz فإنه يعتبر الايديولوجيا جزء من الثقافة ككل، وبما أن الثقافة لا يمكن النظر فيها بوصفها مجرد أنماط سلوكية فكرية وعملية فقط، " إنما في النظر فيها بصفتها مجموعة من آليات الضبط- خطط ووصفات و قواعد وتعليمات (وهو ما يدعوه مهندسو برامج الكومبيوتر "بالبرامج ")- الموجهة للتحكم بالسلوك" [iii] فإن الايديولوجيا هي بنية رمزية تعبر عن الخيال الاجتماعي وتوجه الأفعال الاجتماعية وتفسرها.

لقد كان إريك إريكسون Erik Erikson يقول قبل غيرتز: " المؤسسة الاجتماعية التي هي حارسة للهوية، هي ما أسميناه إيديولوجيا." [iv] وهذا يعني أن الايديولوجيا هي خطاب حجاجي وظيفته إقناع الأفراد بما يشكل هويتهم والدفاع عنها.

أما هابرماس فقد لاحظ تغلغل الايديولوجيا حتى في مجال العلوم والتقنيات الناتجة عنها، حيث تظهر لنا مدى خضوعنا لحتمية الأوضاع وآلية الظروف، هذا فضلا على ما تحمله من تشيء للحياة الإنسانية واستلابها.

إن النتائج الهامة التي يمكن استخلاصها من هذا العرض المختصر، هو أولا أن الإيديولوجيا مثلما أن لها وجهها السلبي المتمثل في التحايل والتشويه، فإن لها خصائصها الايجابية وهي إدماج أفراد المجتمع بهويتهم، وبثقافتهم، أو تبرير مشروعية سلطة معينة والدفاع عنها. وهي ثانيا بهذه المواصفات تجعلنا ننتقد وجهها السلبي المرضي دائما، لكن يجب أن نحافظ على وجهها الايجابي التأسيسي. وثالثا وأخيرا، فإنه يجب التأكيد أن الكلام عن الهوية هو دائما كلام ايديولوجي، مادامت الهوية تعبيرا عن علاقة الانتماء أو مشروعا لتبرير وجود الجماعة.

2- أسبقية الهوية الأنطولوجية عن الهويات الأخرى:

التأمل مع مارتن هيدجر في الوجود، يعني أنه يجب أن تسلم معه أن الوجود الفردي للكائن متقدم على وجود الأشياء وعلى أي وجود آخر، وهذا يعني أن طرح اشكالية الهوية يسبقه طرح هوية الكائن الذي يفكر فيها ويبحث فيها، فمن هذا الذي يطرح اشكالية الهوية إن لم يكن ذلك الكائن المنشغل بهويته هو في حد ذاته ؟ أليس هذا ما يجعل هويته تفرض نفسها على أي بحث في الهوية ؟ هذا ما جعل هيدجر يرى أن هذا الكائن الذي يطرح نفسه كنمط في الوجود وليس كنمط للمعرفة قادر على أن يجد ذاته. " الدازاين هو هذا الكائن الذي أنا عليه في كل مرة أنا نفسي، حيث الوجود هو في كل مرة هو وجودي." [v] أي طريقة الوجود هي ملك الكائن الذي يوجد في العالم وجودا فعليا، فوجوده ملكه واختياره وليس وجودا مبتذلا وتابعا لغيره، ولذا فهو مطالب بأن يفهم وضعيته ويفسرها ويوضحها لنفسه، ومن ثم يبني مشروعه في الوجود ويلقي به في الواقع. وهذا يعني أن هويته ليست موجودة في ماضيه بل هي أمامه يصنعها كيف يشاء.

أما غادامير، الذي تأثر بالفهم الأنطولوجي، فإنه يتكلم عن ثلاثة مفاهيم أساسية: الانتماء appartenance، التماسف distanciation، إعادة التملك réappropriation حيث الانتماء يظهر " لحظة الهوية كذاتية مأخوذة في الانتماء إلى وجودنا من أجل ومن خلال الآخر الثقافي. التماسف يظهرلحظة التفكير الخارجي للذاتية ؟؟ التي تختلف عن هذه الذاتية كآخر. ولحظة " اعادة التملك " وهي لحظة " استئناف " التملك بواسطة الذات التي تطرح نفسها أخلاقيا، كذات شخصية، إما من أجل العنف أو من أجل الحق في ipséité ذاتيتها المركبة. "[vi] التأمل في وجهة نظر غادامير يظهر أن فهم الذات لنفسها محدد بعلاقة الانتماء. وأنها لا تفهم نفسها الا من خلال تجربتها الثقافية في أبعادها اللغوية والتاريخية والفنية.

رغم موافقة بول ريكور لأسبقية الفهم الأنطولوجي في فهم الهوية، إلا أنه يرفض الطريق القصير الذي يقترحه هيدجر في فهم الذات لنفسها. إن فهم الذات لنفسها لا يتم إلا بوساطة النصوص والثقافات والتاريخ والأفعال الإنسانية. وتزداد أهمية هذه الوساطة أكثر، عندما يتعلق الأمر بهوية أمة أو جماعة، ففهمها لذاتها مرتبط

بتفسيرها لتاريخها وثقافتها وتجربتها الإنسانية. أما علاقة الانتماء عند غادامير، فلا يمكن النظر إليها كحتمية لا يمكن تجاوزها، حيث يمكن للذات دائما أن تنتقد إيديولوجيتها وتراثها وتنفتح على غيرها.

3- البنية الجدلية لإيديولوجيا الهوية:

إذا كان ارتباط اشكالية الهوية بمفهوم الايديولوجيا أمر مؤكد، فإنه من المهم تحليل الطابع الإيديولوجي للهوية الذي يعرض نفسه في شكل ثنائيات جدلية مختلفة، تعبر في الواقع عن صراع بين التأويلات الإيديولوجية، حيث كل منها يحاجج على موقفه بطرق مختلفة، ومن بين هذه الثنائيات الهامة:

1- الهوية الوطنية والهوية الطائفية:

الهوية الوطنية هي تأكيد لاتجاه وطني يبحث عن خصائص وعناصر ثقافية وتاريخية وسياسية تجمع مكونات شعب معين، وتعبر بالتالي عن هويته الوطنية. أما الهوية الطائفية فهي تلك الهوية التي تتحدد بخصائص الطائفة الدينية أو الإثنية وتخدم وجودها ومصالحها في مواجهتها للطوائف الأخرى. الوضع اللبناني يعبر أكثر عن الصراع بين الهوية الوطنية والهوية الطائفية، حيث ترفض الطوائف اللبنانية الذوبان في هوية وطنية مشتركة لا تعترف لها بوجودها الخاص، ولذلك يستمر النظام الطائفي اللبناني في الوجود، رغم سعي الدولة اللبنانية إلى وفاق وطني تحكمه الشرعية القانونية، ورغم الوعي الفكري والعلمي الذي يميز النخب المثقفة اللبنانية.

2- الهوية الأصيلة والهوية الوافدة:

جدل الهوية الأصيلة والهوية الوافدة موجود لدينا في الجزائر، ويمثله تياران ايديولوجيان هما التيار " العروبي " والتيار " الأمازيغي " اللذان يمتد الصراع بينهما من فضاءات برامج التواصل الاجتماعي إلى الجرائد والمجلات وحتى الدراسات الأكاديمية. فحوى هذا الصراع في الفيسبوك مثلا هو ادعاء كل منهما هو الأصل: فالتيار الأمازيغي يدعي أن السكان الأصليين للجزائر هم الأمازيغ، بينما يدعي التيار العروبي أن ذلك غير صحيح، لأن وجود العرب في شمال افريقيا لا يرجع الى الفتح الاسلامي، ولا لهجرات قبائل بني هلال المتأخرة، بل يرتبط بالوجود الفينيقي، حيث يستخدم سكان شمال افريقيا اللغة البونية القريبة من اللغة العربية.

وتبعا لادعاء الأصل يسعى كل تيار الى الاستحواذ على الآخر، حيث يرى التيار الأمازيغي أن الشعب الجزائري كله أمازيغ عربهم الاسلام، في حين يذهب التيار العروبي أن العرب هم الأغلبية في الجزائر، وأن الأمازيغ أنفسهم من أصول عربية يمنية. ويمتد الصراع بينهما إلى المجال اللغوي والثقافي والسياسي، يكتب الكاتب أمين الزاوي في جريدة العرب عن مسألة كتابة اللغة الأمازيغية مايلي:" فهناك تيار يرى ضرورة كتابتها بحروف التيفناغ، وهي الحروف الأصلية التي استعملها الأمازيغ في الجنوب خاصة لكتابة هذه اللغة منذ قرون، وهناك تيار عروبي بعثي إسلاموي يدعو لكتابتها باللغة العربية، وهناك تيار ثالث يفضل ويعمل على كتابتها بالحروف الاغريقية- اللاتينية." [vii] وهذا التيار الأخير، هو الذي ينتصر له أمين الزاوي، باعتباره أمازيغيا فرنكفونيا. والسبب في نظره هو أن " مطالبته مؤسسة على شرعية نضالية سياسية وإبداعية، فلقد قاد هذا التيار منذ العام 1949 معركة الهوية بالتوازي مع معركة الاستقلال الوطني." [viii] غير أن رأي أمين الزاوي يدل على

اجحاف في موقف الأمازيغ الذين لم يخضعوا للثقافة الفرنكفونية بما فيهم كتابا كبارا*، ولست أدري كيف يلصق الكاتب شرف معركة الاستقلال الوطني بتيار كان يدعو إلى الاندماج مع فرنسا الاستعمارية.

إن التيار الأمازيغي يناضل من أجل أن تكون اللغة الأمازيغية لغة وطنية ورسمية. ويحرص على إعادة إحياء الرموز والقيم الثقافية للأمازيغ، ويكون من أجل ذلك الجمعيات الثقافية والأحزاب السياسية. وبعض هذه الجمعيات والأحزاب تحولت الى حركات عنيفة، من خلال ارتباطها بالتيار الفرنكفوني وبمصالح الاستعمار الحديث، ودعوتها إلى الاستقلال الذاتي أو الانفصال التام عن الجمهورية الجزائرية كما هو حال حركة المطرب مهني في فرنسا.

وفي المقابل، يذهب التيار العروبي الى القول بأن الأمازيغية كلغة لم تكتمل بعد، وأنه بوضعها الحالي لا تمثل كل الأمازيغ، الأمر الذي يتطلب البحث عن لغة أمازيغية جامعة لكل الأمازيغ، وأن تكتب حروفها باللغة العربية أو حروف التيفناغ الأصلية. وأن الشعب الجزائري يجد هويته في الإسلام والثقافة العربية، وليس في الثقافة الفرنكفونية.

يذكرنا الصراع بين التيارين بإشكالية أيهما الأصل: الدجاجة أم البيضة ؟ ولكنها إشكالية فارغة ولا معنى لها، لاسيما بالمقارنة مع الدروس التي يعطينا اياها تشكل هويات الأمم المعاصرة، وهي هويات لا تهاب التعدد الإثني ولا الثقافي، مع ذلك، فوراء هذه الإشكالية تيارات إيديولوجية وسياسية تدافع ع لى مواقعها في المجتمع ومصالحها الخاصة.

3- الهوية المنغلقة والهوية المفتوحة:

الهوية المنغلقة هي هوية مبدئية مطلقة، وبالتالي دوغمائية. وقد تلبس لباس السياسة أو الثقافة أو الدين. في جميع الأحوال، فهي لا تقبل التغير ولا التبدل، وان قبلت بهما فإن ذلك لا يكون الا في سياق مبادئها وشروطها الخاصة. لقد رأينا مثل هذه الهوية في الأنظمة الشمولية مثل الشيوعية والنازية والفاشية والأنظمة الديكتاتورية في كل مكان. في المقابل فإن الهوية المفتوحة هوية متحررة، تقبل بالجديد، تتكيف مع الواقع المتغير، وهي سمة الأنظمة والدول الغربية المعاصرة. إنها هوية تستمد مشروعيتها من القانون، وهي محل توافق المجتمع، في حين تقوم الهوية المنغلقة على سلطة جماعة أو فرد نافث، فهي هوية فعلية وليست قانونية.

4- الهوية الدينية والهوية العلمانية:

لاشك أن الهوية الدينية هي الهوية التي يفترضها دين معين لجماعة المؤمنين الذين ينتمون اليه. إنها ببساطة تفترض التسليم بمبادئه ومعتقداته وطقوسه الخاصة والإيمان بها وتطبيقها. وبما أن قراءة الدين ليست واحدة، فإنه ينشأ عن ذلك تصورات مختلفة لهذه الهوية، هذا واضح في تاريخ الأمم الدينية وفي واقعها المعاصر، حيث ينشأ الاختلاف حول الهوية الدينية الواحدة بين تأويلات أو مذاهب تعبر عن الفهم البشري للدين، كما هو حال المذهب الشيعي والمذهب السني في تاريخ الإسلام، والمذهب الكاثوليكي والبرتستانتي في تاريخ المسيحية، ولكن التعمية الايديولوجية لهذه المذاهب تكمن في التغطية على هذا الفارق بين كونها اجتهادا بشريا وبين ادعائها أنها تمثل حقيقة الدين ذاتها. لقد كان أجدادنا من العلماء والفقهاء والمجتهدين يقولون عل الأقل " الله أعلم " بعد اجتهاد مخلص في الرأي، أما المعاصرون فإنهم لا يتوانون في الإفتاء بالمتناقضات والأحكام المسبقة على من

يخالفهم الرأي. وهذا يكفي للدلالة عل أن وراء الهوية الدينية تيارات إيديولوجية متصارعة فيما بينها، وتصارع في نفس الوقت من يبحث عن هوية علمانية تعتبر الدين مجرد علاقة شخصية بين الفرد وربه.

يشبه هذا الواقع الفكري مواجهة الفكر اللاهوتي لعلمانيي عصر الأنوار في أوربا، والذي انتقل بدوره إلى العالم الإسلامي في صورة الصراع بين التأويلات الدينية والنخب العلمانية المتأثرة بالفكر الغربي والثقافة الغربية.

تنطلق الايديولوجيا العلمانية في تحديدها للهوية من عناصر موضوعية، فهي تتشكل من عناصر ثقافية وتاريخيةٍ موضوعية، ولكن الهوية العلمانية باستبعادها للدين كبنية ثقافية لتشكيل الهوية الجماعية تتجنب الواقع. ويطرح في مجتمعاتنا صراعا كبيرا بين التصور الديني والتصور العلماني للهوية، وينزل النقاش بينهما الى حد الابتذال، ويخضعان معا للتجاذبات السياسوية والحزبية، وقليل من الدراسات في كلا الجانبين نجدها هامة بالنسبة لاشكالية الهوية.

5- الهوية المحلية والهوية العالمية:

الهوية المحلية هي جماعة داخل المجتمع أو الهوية الوطنية لمجتمع بأكمله، تتعرض في العصر الحديث لما يسمى بالعولمة بكل أشكالها الثقافية والاقتصادية والسياسية، و يرى الوزير غازي بن عبد الرحمان القصيبي " أن العولمة في جوهرها، ليست سوى محاولة لإعادة صياغة اقتصاد العالم كله طبقا للنموذج الأمريكي" [ix]، وهذا يمكن أن نضيف اليه أن العولمة هي عولمة النظام الليبرالي برمته وما يرتبط به من ثقافة وفنون... والعولمة تطرح كنقيض للهويات المحلية باعتبارها مسخا وتفنيدا لها وتجاوزا، وهذا الاستلاب التي تماسه العولمة يد في المقابل رفضا من أصحاب الهويات المحلية.

3- إيديولوجا الهوية والحكمة العملية:

حالما تواجه إشكالية الهوية الحياة العملية الواقعية فإنها تلتقي مع طبيعة الإنسان المتعارضة بين كونه كائنا متناهيا و غير متناهي في نفس الوقت، أو كما عبر عنها بول يكورـ" مشكلة عدم التناسب disproportion الحميم بين الإنسان وذاته نفسها، أو البنية المتعارضة للانسان الممتدة بين قطب اللاتناهي وقطب التناهي. " [x]

هذا الوصف يدل أن الانسان كائن بقدر ما هو قادر فإنه كائن هش وضعيف، و يترتب على هذا حتما عدم قدرته على فهم نفسه فهما مطلقا ونهائيا يمكنه من التحكم بنفسه، فهويته اذن مفتوحة على كل الاحتمالات السالبة والموجبة، الضارة والنافعة الأمر الذي يطرح مسؤوليته الكبرى على خياراته وعلى مشاريعه في الوجود. ويزداد المشكل تعقيدا لما يتعلق الأمر بهوية أمة أوجماعة، عندما تريد هذه الأمة أو الجماعة الالقاء بهويتها في الواقع العملي كمشروع يتعلم من الواقع ويواجهه في نفس الوقت. وحتى لا يكن تصورنا لهذا الواقع خياليا، يجدر بنا الانطلاق من مجتمعنا الجزائري أو من أمتنا العربية الاسلامية، حيث طرحنا لهويتنا لازال يتأرجح بين تلك الثنائيات البغيضة التي لا يعترف فيها أحد بأحد، ويظن كل طرف أنه يمتلك الحقيقة، وكل طرف يحرص على الاستحواذ على الآخر وتشويهه، الأمر الذي يعزز مكانة الايديولوجيا في صورتها السلبية، ويبعدنا عن الايديولوجيا في صورتها الايجابية: ايديولوجيا الاعتراف والبناء والانفتاح والمشروعية.

إن علاقة الهوية بالاعتراف سمة المجتمعات المتحضرة، وإن أول ما يجب الاعتراف به في مجتمعنا هو التعددية الثقافية والإثنية، ذلك" أن المجتمعات التي تعيش تعددا ثقافيا يصبح فيها الاعتراف حاجة ضرورية وملحة، وذلك

بالنظر إلى العلاقة القائمة بين الاعتراف والهوية، فالهوية هي أشبه بالإدراك الذي يمتلكه الأفراد حول أنفسهم، والمميزات الأساسية التي تحددهم بوصفهم كذلك . "[xi] والاعتراف في هذه الحالة لا يتضمن معنى أخلاقي فحسب، يتمثل في احترام الآخر، بل يتضمن معنى عملي هو إدراك أن الآخر هو مثلي تماما، غير قابل للشطب أو التهميش أو التجاوز، وأنه من حقه أن يعبر عن نفسه كما هو بصفته عضوا أو فئة في المجتمع.

إن هذا الواقع الجديد لم يحصل في شكله الكامل إلا في المجتمعات الأوروبية المعاصرة، تلك المجتمعات التي انتقلت فيها السلطة السياسية من الشرعيات التاريخية والدينية والشمولية إلى الشرعية القانونية، حيث يصبح القانون هو الفيصل ليس فقط في تطبيقه على المواطنين، بل في عمل الدولة كمؤسسة مركزية إلى جانب المؤسسات الأخرى. ماذا يحصل لمجتمعاتنا عندما تنتقل الى الشرعية القانونية ؟ وما هو أثر ذلك على إشكالية الهوية ؟ الجواب بسيط، وهو أنه في مجتمع يحتكم إلى القانون، فهذا يسمح بالمساواة والعدالة بين الأفراد والفئات الاجتماعية المختلفة، ويعمل على تفتح شخصياتهم و هوياتهم، وينمي مواهبهم، ويجعلهم يساهمون في بناء هوية المجتمع واثرائها في علاقتهم بغيرهم من الفئات الأخرى. وفي المقابل يمنع على كل الفئات كل أشكال التضييق والتهميش والعنصرية والجهوية والتمييز مهما كان نوعه. من ذلك، نج دنيس– كونستون مارتين D.C. Martin يتكلم عن قانون 912 التمييزي في فرنسا " هذا القانون يضع في حسابه ضمنيا " علامات عنصرية " الرحالة ينظر إليه كعنصر ينتمي الى جماعة تتميز بغيريتها المفترضة إجرامية، ولا ينظر اليه كمستحق لأن يكون مواطنا. لذلك نشأ نظام قمعي سيبقى مع ذلك، حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلى سنة 1969."[xii]

لا يخفى النضال الذي قاده كثير من المفكرين والناشطين في أنحاء العالم ضد هذه الآفات مثل نيلسون مانديلا، بل ونضال شعوب كاملة من أجل هويتها كما هو حال شعبنا الجزائري، مما يعني أن البحث عن الهوية أمامه تحديات وتحكمه رهانات وشروط، لا يمكن حلها في المجتمعات المتخلفة، حيث الهوية متأزمة.

إن العلاقة بين الديموقراطية واشكالية الهوية في العصر الحديث علاقة ضمنية، حيث تسمح الحريات الديموقراطية بممارسة المواطنين لطقوسهم الخاصة وتحميهم من الجماعات المتسلطة أو التي تمثل الأغلبية، وفي المقابل تعرف اشكالية الهوية في المجتمعات الديكتاتورية تأزما وتضييقا، والهوية المتأزمة هي " أداة قتل مروعة وبلا رحمة في حالات كثيرة، يمكن لشعور قوي ومطلق بالانتماء يقتصر على جماعة واحدة أن يحمل معه ادراكا لمسافة البعد والاختلاف عن الجماعات الأخرى، فالتضامن من الداخل يمكن أن يغذي التنافر بينها وبين الجماعات الأخرى. "[xiii] ولتفادي هذا الانكماش على الذات والتعصب للهوية الخاصة، يسمح النظام الديموقرطي بتفتح هذه الهويات الخاصة وينميها، ويجعلها في تواصل مع الهويات الأخرى في المجتمع، الأمر الذي ينشأ عنه التلاقح والتواصل والتكامل والتعرف على بعضها البعض، كما يحد من شططها وغلوائها وتعصبها بمواجهتها لتعددية المجتمع المثمرة التي تعلمها الكثير.

إن القول بالاعتراف والشرعية القانونية وأثر الديموقراطية في بناء الهوية، إذا كان يساعدنا في النظر الى هويتنا التي نلقي بها أمامنا، فهذا لا يجعلنا نغفل هويتنا السردية الناتجة عن تاريخنا وثقافتنا الخاصة، ذلك أنه من لا أصل له لا مستقبل له كما يقال، وعندما نضع هذا الكلام على محك الواقع، فإنه يجدر بنا الأخذ بثقافتنا الخاصة في تنوعها أيضا وتعددها، حيث تفيدنا الدراسات التأويلية والأنثروبولوجية الحديثة أن ثقافة المجتمع

ليست فقط مجرد معطى رمزي وتاريخي، بل هي مجال تظهر فيه الذاتية والبينذاتية، وبالتالي ارادة الأفراد والجماعات وتصوراتهم ومشاريعهم في الوجود والبقاء، ولذلك يحرص كليفورد غيرتز أن يجعل من الثقافة بنية رمزية لتأويل الأفعال الاجتماعية للفاعلين الذين ينتمون اليها، " لأنه كما يقول، التجربة الإنسانية لا يمكن أن تنغلق داخل استدلال تجريبي، ولا يمكن أن تعالج بواسطة وصف يقال أنه موضوعي. إنه يرفض النظريات الوضعية والمقاربات الموضوعية التي قال عنها أنها غير كافية لتحليل غنى الحياة الاجتماعية المشبعة بالخيال، الذي عنه انحدرت البينذاتية التي تتبلور في الرمز الذي له معنى لدى الفاعلين." [xiv]

ومن بين مظاهر الثقافة هو الدين في المجتمع، وقد لاحظ قيرتز من خلال دراساته في المغرب وأندونيسيا أهمية الدين في تشكل أشكال الفعل الاجتماعي وبناء حوافزها ومقاصدها، وبالتالي، فلا يمكن الذهاب مع مناهضي الدين الاسلامي في مجتمعاتنا الى تلك المطابقة الفارغة والعمياء التي يربطونها بتطور أوربا وحاجتنا الى تطورنا مثلها بشطب الدين من حياتنا الواقعية ومن أذهاننا ووجداننا كأنه لم يكن. ان مثل هذا الادعاء تكذبه أوربا نفسها التي عادت الى الدين عودة قوية، وتكذبه تجربة الاسلام الغنية في التاريخ، التي جمعت أمما متباينة على الايمان بالله الواحد والعمل الصالح.

خاتمة:

يطرح الفهم الأنطولوجي محاولة بناء الهوية على الفرد المتعين الواقعي الذي يرى هويته أمامه، فيختارها اختيارا من خلال بناء مشروعه الخاص ويلقي به أمامه أمام التحديات المعقدة في وضعه الخاص. غير أن الفلاسفة لاحظوا أن هذا المرور السريع للذات عبر ذاتها غير ممكن، أو على الأقل لا يعلمها الكثير، ومن هنا يربطون اشكالية الهوية بالتجربة الانسانية في كل تجلياتها اللغوية والتاريخية والفنية، حيث تبني الذات نفسها من خلال ثقافتها وتاريخها ولغتها وعلومها، وهذا الفهم ينطبق أكثر على الهوية الجماعية.

غير أن التفكير في إشكالية الهوية عندنا يتمخض عن طرحها في شكل إشكاليات جدلية ثنائية كالهوية المنغلقة والهوية المفتوحة، الهوية الأصيلة والهوية الدخيلة، الهوية المحلية والهوية العالمية (العولمة)... وهي ثنائيات لم تزد اشكالية الهوية عندنا الا تأزما وتعقيدا، باعتبارها ثنائيات متناقضة، و من ورائها ايديولوجيات متناقضة وظيفتها التشوية والتحايل والتهميش لبعضها البعض، ولذلك فهي لا تدرك الوظيفة الايجابية للايديولوجيا من حيث هي بناء للهوية ومن حيث تأسيس لمشروعيتها في الوجود.

إن حل مشكلة الهوية في مجتمعاتنا يجب أن يعرضها على حياتنا العملية كنمط للوجود، وبالتالي هوية أمامنا أيضا وليست وراءنا، حيث يمكن لها أن تجد الحلول المناسبة، بتجاوزها للرهانات والعوائق المعقدة التي تحول دون تفتحها ونموها، والعمل بما يفيدها في ذلك، مثل الاعتراف بالآخرين وبناء الشرعية القانونية داخل المجتمع والتأسيس لنظم ديموقراطية تخدم كل المواطنين وتسمح بتنمية حرياتهم وبناء شخصياتهم.

لكن هذا لا يجعلنا نهمل الطابع السردي للهوية، حيث لكل هوية تاريخ وثقافة وتجارب وقصص وحكايات انسانية تحددها لا محالة، وبالتالي، فلكي يكون لنا مستقبل يجب أن يكون لنا أصل ننطلق منه.

الهوامش:

[i] عبد الله العروي: الايديولوجيا العربية المعاصرة. المركز الثقافي العربي. ط1. 1995 الدار البيضاء المغرب. ص: 29.

[ii] Paul Ricœur : L'idéologie et L'utopie, p : 337.

[iii] كليفود غيرتز: تأويل الثقافات. مقالات مختارة. تر: محمد بدوي. مر: بولس وهبة. المنظمة العربية للترجمة. ط1، 2009، بيروت. ص:151.

[iv] Paul Ricœur : L'idéologie et L'utopie, p : 340.

[v] Jocelyn Benoist : Etre soi-même : Heidegger et l'obsession de l'identité. Revue philosophique de Louvain. Quatrième série. Tome 94, N 1, 1996. P :71. https://www.persee.fr/issue/phlou_0035-3841_1996_num_94_

[vi] André stanguennec : La dialectique réflexive. Lignes fondamentales d'une ontologie du soi. Presse univ. Septentrion. 2006. P : 48.

[vii] صحيفة " العرب " العرب الثقافي. يومية عربية تأسست في لندن سنة 1977، السنة 40 العدد: 10876، ص: 10. الأحد 2018/01/21.

[viii] المرجع نفسه. ص: 10.

*الواقع يدلنا أن أمازيغ الجنوب الجزائري وأمازيغ الأوراس وحتى أغلبية من سكان بجاية وتيزي وزو وغيرها في الشمال، لم يقبلوا الخضوع إلى الايديولوجية الفرنكفونية وقيمها الاستعمارية الجديدة، بل إن كثيرا ممن كتب بالفرنسية في العهد الاستعماري من الأمازيغ لم يضع نفسه خارج الاطار العربي الاسلامي الذي كان يشكل عصب الدولة الجزائرية الناشئة إبان الاستعمار.

[ix] غازي بن عبد الرحمان القصيبي: العولمة والهوية الوطنية.مكتبة العبيكان. الرياض. ط2، 2002. ص: 28.

[x] Paul Ricœur : Anthropologie philosophique. Ecrit et conférence. Editions du Seuil, 2013. P : 22.

[xi] عامر عبد زيد الوائلي: تصدير في ملف: الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الابداع. مؤسسة مؤمنون بلاحدود. ص: 8.

[xii] De Denis -Constant Martin : L'identité en jeux. Pouvoirs, identifications, mobilisations. Recherches internationales. Karthala. 2010. P : 152.

[xiii] عامر عبد زيد الوائلي: تصدير في ملف: الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الابداع. مؤسسة مؤمنون بلاحدود. ص: 8.

[xiv] De Lahouari Addi, Lionel Obadia : Clifford Geertz : Interprétation et Culture, Archives contemporaines, 2010, p : 5